عامة المغرب الأوسط بين الضغط الميورقي والإغراء الموحدي

أ.فوزية كرراز*

الملخص:

كان لدخول بني غانية سواحل المغرب الأوسط تحولا خطيرا في المسار السياسي الموحدي بالمنطقة باعتبار نزولهم الأول كان ببجاية، وتمثل هذا التحول في انقسام عامة المنطقة إلى قسمين، قسم شكلته القبائل البدوية المتمثلة في القبائل العربية الهلالية، والقبائل البربرية الزناتية، المعارضة في أغلب الأحيان للسلطة الموحدية، ومنها استمد ابن غانية قوته فطالت مدة حربه مع الموحدين.

وقسم آخر شكلته عامة المدن التي عانت كثيرا من وجود ابن غانية، فاستنجدت بالقوة الموحدية، وانضمت إليها في القضاء عليهم. ويمكن استخلاص أن عامة المغرب الأوسط عاشت حالة من الفوضى والخوف، وظلت في تقلب بين الولاءين بحسب ميزان القوى.

Abstract

By the rise of Banu Ghaniya on the coasts of the Median Maghreb (Algeria), in Bejaia. The political position of the Almohads had been troubled. The region had been divided on two parts, the first under the power of the Bedouin Hilalian tribes with the Zanati Berber Tribes, and both of them reject the Almohads authority. This position gave advantage to the Banu Ghaniya.

The second region was commanded by the allies of the Almohads because the bad politics of Banu Ghaniya, this situation made the Median Maghreb in anarchy and terror for a long time.

*– أستاذة بقسم العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر، الجزائر.

مقدمة:

كان لدخول بني غانية سواحل المغرب الأوسط وبجاية بشكل خاص[1]، تحولا خطيرا في المسار السياسي الموحدي على مستوى المغرب الإسلامي والأوسط خاصة، باعتبار أول نزولهم كان أحد موانئها. فإلى ماذا يرجع اختيارهم لهذه المدينة دون غيرها من سواحل مدن المغرب الأوسط بغض النظر إلى بعدها عن الحاضرة؟

تناولت المصادر تفاصيل دخول بني غانية مدينة بجاية والعوامل الميسرة لذلك فمن المؤرخين من يحمل مسؤولية نجاح استيلائهم على المدينة لأهل المدينة ذاتها، وما كان ليدخلها لولا أن "راسله جماعة من أعيانها –على ما يقال– يدعونه إلى أن يملكوه ولولا ذلك لم يجسر على الخروج"[2]. وعلى الرغم من أن الرواية لم تحمل دلالة التأكيد باستعمال صاحبها عبارة "على ما يقال" فهذا لا يعني نفيها أو التشكيك فيها، فهناك عديد من القرائن التاريخية ما يثبت بشكل أو بآخر استدعاء أعيان المدينة لبني غانية أو على الأقل لم تسجل المصادر أي معارضة لهم عند دخول هؤلاء المدينة[3]. فلم يكن من الصدفة أن يقتلا ابنا القائد بن حملة–لم نهتد لتعريفهم– وتغريب بني حمدون عن بجاية إلى سلا بعد إجبارهم على بيع ممتلكاتهم بأبخس الأثمان سنة 581هـ/1185م من قبل السلطة الموحدية[4]، ولا يفوتنا أن الأسرة الأخيرة كانت من الأسر الكبرى ذات النفوذ في بجاية، ومن أعيان الدولة الحمادية سابقا[5] ، هذه المكانة مكنتهم من التواطؤ مع الخليفة عبد المؤمن بن علي لدخول المدينة. وعلى ما يبدو لم يتلقوا مقابلا من السلطة الجديدة نتيجة خدمتهم. وفي إشارة أن حمدون بن ميمون وزير ابن حماد، كان قد خرج من المدينة بمجرد ما إن فتحها الخليفة عبد المؤمن فارا إلى قبائل العرب من بني سليم، ولم يرجع إليها إلاّ بعدما حصل على الأمان والامتنان منه[6] ، لكن الواضح أنه لم يلق في ذلك الأمان ما منيّ به نفسه حين فكر في مساعدة الموحدين. وفي رواية أخرى خرج بجيشه من بجاية أياما وأحجم عن مقاتلة الجيش الموحدي[7] . كما أجبر بنو القائد

وأصهارهم على بيع أملاكهم وديارهم، وبما أن المدينة عرفت خرابا ومجاعة، فقد بيعت ممتلكاتهم "بثمن بخس أكثره غير مقبوض" وأخرجوا من المدينة واستقروا بسلا[8] كما قتل نزار بن الزميلي شيخ أسرة بني الحكيم العربية [9] ورشيد الرومي[10].

وإن كان الطموح السياسي لدى بعض أعيان المدينة عاملا في التعاون مع بني غانية، فإن المصلحة الاقتصادية كانت وراء تحرك أرباب التجارة في نفس اتجاه الأسرة الغازية، إذ تضرروا من الإجراءات التي اتخذها عبد المؤمن بن علي فيما يخص التجارة الخارجية. ففي إحدى اتفاقياته مع تجار جنوة سنة 556هـ/1160م خفض من الرسوم على البضاعة في كل من ميناء سبتة وتونس بنسبة 8% في حين أبقاها على ما كانت عليه 10% على ميناء بجاية[11]. هذا الإجراء كان لصالح المراسي الأخرى المغربية على حساب مرسى بجاية الذي كان أنشطهم ومتصدر تجارة حوض المتوسط في عهد الدولة الحمادية، ولا توجد أية إشارة إلى إلغاء تلك الرسوم الجمركية في الموانئ الموحدية أو عرفت تعديلا آخرا لاحقا مما يوحي باستمراريتها، وكانت النتيجة إثارة غضب أرباب التجار هناك، وعليه فمن غير المستبعد أن يكونوا استدعوا بني غانية لدخول المدينة أو مساندتهم في أضعف الحالات بعدما تم الأمر[12].

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن التجار المعنيون بالأمر هم كبار تجار المدينة الذي انحصرت تجارتهم في التجارة البحرية، مشكلين علاقات وطيدة مع تجار أوربا ومصر والأندلس[13]. وإن لم يكن لهم أدنى تنظيم، فإنهم كانوا شريحة واسعة ذات أموال طائلة، وعلاقات متشعبة، بل وكانوا من أرباب الدولة [14]. ولم يختلف موقف النخبة من الفقهاء عن موقف أعيان المدينة الذي سبق ذكره والمتمثل في عدم معارضة جهرية إن لم نقل مساندة رسمية. لماذا؟

إن مساندة فقهاء المالكية بالمدينة للدخلاء متوقعة؛ يرجع ذلك إلى غيرتهم على المذهب السني المالكي، وإن كان مذهب الموحدين هو الآخر سنيا في ميدان

التشريع[15]. وهناك من يعزى نجاح هؤلاء والدولة الموحدية في أوج قوتها إلى مساندة الرأي العام المتأثر بعلماء المذهب المالكي[16]. فكان الفقيه المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي خطيبهم في أول جمعة صلاها على ابن إسحاق بن غانية ببجاية، وفيها خطب لبني العباس وقد كان سابقا يتعفف عن المناصب السياسية من قضاء وخطبة للسلطة الموحدية بحكم اتجاهه الزهدي وهذا ما أكده ابن الزبير "ودعي ببجاية إلى خطتي القضاء والخطابة للموحدين فامتنع عن ذلك وأبى، ودعي إلى ذلك حين دخلها الميورقي فأجاب وكان ذلك سبب امتحانه عند خروج الميورقي عنها ورجوعها لموحدين"[17] ولا يفسر تعففه عن المناصب في السلطة الرسمية وقبولها في حكم بني غانية إلا باستيائه من الحكم الموحدي [18]. ولذلك أباح الخليفة المنصور سفك دمه إلاّ أنه توفي في فراشه بعد التعذي[19]. وكثيرا هم علماء بجاية ممن ساندوا بني غانية حتى وإن لم ترد المصادر أسماؤهم، يظهر النص التالي ذلك، بعد استرجاع القوات الموحدية المدينة "فاشتدت وطأتهم على أهل العلم واعتقلوا أناسا منهم "[20].

وإن كانت مساندة بعض فقهاء المالكية صريحة وبإرادتهم، فإنها عند البعض الآخر نتيجة الإكراه والضغط[21]. ولا نعتقد أن معارضة القاضي أبو علي المسيلي في مبايعتهم، وإن كانت بحسب الرواية التاريخية ظرفية مشروطة بنزع اللثام[22] . فهي تعتبر مساندة منه للموحدين كما ذهب أحدهم[23]، وإنما راجع لترفعه عن أمر البيعة في الأساس "وكان هذا المطلب هو سبب تخليه عن منصب القضاء"[24].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار توافق أعيان المدينة للأسرة الغازية، واستدعائهم لها بحسب بعض الإشارات التي أوردناها سابقا تتضح أسباب اختيار مدينة بجاية للنزول دون غيرها من المدن، والذي لم يكن من قبل الصدفة، إذ راعت قبل كل شيء الانتماء القبلي لمعظم سكانها، وللأسرة الحاكمة بها سابقا مما يحصد لها تضامنا مؤكدا، ومن تم تضمن قاعدة ثابتة للانطلاق منها إلى جهات مختلفة من المغرب الإسلامي[25].

وعلى الرغم من التأييد الذي وجده علي بن إسحاق بن غانية من بعض نخبة المدينة وأعيانها، فإنه لا يمكن الجزم بمساندة كلية ومطلقة من قبل كل سكانها. وإن سلمنا بالبيعة التي قدمها الناس له في المسجد الجامع للمدينة والدخول في طاعته[26]، وإن شكلت عند البعض من صنهاجة فرصة لاستعادة المبادرة السياسية[27]، +فهي غير كافية للدلالة على طاعة صحيحة ونابعة عن قناعة، نظرا للظروف التي أحاطت بتلك البيعة والتي نلخصها في:

1- الواضح أن أهل المدينة كانوا يعيشون في ظل السلطة الموحدية وضعا أقل ما يقال عنه مستقرا، بدليل لما دخلها ابن غانية وجدها شاغرة من الجيش[28] ، ولا يوجد بها استعدادات عسكرية[29]، وهي دلالة على أن السلطة لم تلق أي معارضة أو مواجهة من قبل أهل المدينة ولم تتوقعها على الإطلاق.

2- سبقت تلك البيعة بمحاولة دفاع عن المدينة من قبل أخلاط من الناس «لمقاتلة بنو غانية، ليس لهم تنظيم ولا عدة ولا قائد يقودهم"[30] . وإن لم تمدنا المصادر بمعطيات دقيقة عن تلك المقاومة لأن الكتابة التاريخية لا تهتم بهؤلاء فقط ذكرها جاء عرضيا لأن الحدث فرض نفسه، فهذه المحاولة وإن افتقرت إلى تنظيم فلا يعني أصحابها مهمشين عن الحياة السياسية تماما، بل محاولتهم تلك "تعبر عن بدايات حس شعبي قريب للمفاهيم العصرية"[31]. وبهذا أصبحت العامة بالمدينة قوة أساسية في الدفاع عنها في غياب الجيش النظامي للدولة

3-لم تكن بيعة أهل بجاية لابن غانية في المرحلة الأولى لدخوله المدينة، وإنما لما رجع إليها بعد سقوط عديد من مدن المغرب الأوسط بيده دون مقاومة أهلها، وجعل عليها ولاة [32]. إذا ما استثنينا القلعة وقسنطينة فيما بعد، وما كان آثر رجوعه إليها وحرصه على أخذ بيعة أهلها إلا تقديرا منه بالأخطار التي ستواجهه والمجملة في عدم قدرته على الاحتفاظ بكل ما احتله إذا ما هو ابتعد عن المدينة والتوغل أكثر في مناطق أخرى من

المغرب وبالتالي كانت البيعة تحصيل حاصل لانحراف سياسي خطير عرفته مدن المغرب الأوسط.

4- قامت القبائل الهلالية بالمنطقة بدور سياسيا هاما في إنجاح مخطط ابن غانية، إذ انحازت إليه في مواجهته ضد ولي بجاية أبو الربيع ابن عبد الله بن عبد المؤمن، وحقق بهم انتصارا عسكريا في موقعة يملول، واستباح محلته بعد ما فرّ منها، وبعث ما فيها من أموال إلى أخيه ومولاه الرشيد الرومي خليفته على بجاية[33].

5- جعل بنو غانية عامة المغرب الأوسط محور نشاطهم السياسي، لذا حاولوا الحصول على بيعتهم بأي طريقة، ولا يخامرنا الشك في أنها كانت تحصيل حاصل لبيعة النخبة من العلماء والفقهاء. ولا يخفى علينا ما لنفوذ هذه الفئة في المجتمعات الإسلامية المحكومة[34]؛ إذ مرتبتهم الاجتماعية والعلمية تمكنهم من ممارسة السلطة السياسية بطريقة أو بأخرى، خاصة وأنها شكلت قبل هذا السلطة الفكرية التي يلجأ إليها المجتمع في أمور الدنيا والدين [35].

ونظرا للعوامل التي أحاطت ببيعة أهل بجاية، نستخلص أن بيعتهم كانت اضطرارية فرضتها قوة وتهديد بنو غانية من جهة، يتعزز هذا الاعتقاد إذا ما سلمنا برواية تفاءل الناس ببجاية بزوال دولته وقصر مدته لما سقطت رايته بجانب المنبر[36]، ومن جهة أخرى غياب شبه كلي للموحدين في الساحة السياسية والعسكرية بالمنطقة. وعليه قد وفق علي بن غانية في اختيار بجاية بوابة يهاجم فيها الموحدون في عقر دارهم، إذ اعتبر المغربين الأوسط والأدنى أضعف أجنحتا الدولة، فضلا عن ضمان حلفاء من العرب الهلالية وغز المماليك[37]، وغير مستبعد أنه كان على اتفاق مسبق معهما لدخول المدينة، إضافة إلى مساندة شبه المؤكدة من القبائل الصنهاجية التي دون شك غاضبة من النظام الجديد، وإن لم تفصح بذلك وهو أمر شجع ابن غانية في دخول بجاية.

لم يقف ابن غانية عند هذا الحد، بل حرص علي بن إسحاق بن غانية على توسيع نفوذه السياسي في المغرب الأوسط قدر الإمكان، وازداد طمعه في ذلك بعد النجاح السهل الذي حققه ببجاية "لقلة المقاتلة وأهل النجدة به"[38]، ومنها توجه إلى العديد من مدن المغرب الأوسط وامتلكها دون مشقة. فهل يعبّر هذا النجاح عن عصيان أهل المدن ورفضهم للسلطة الوصية؟ أم هو تكريسا لقطيعة كانت في الأصل موجودة بين السلطة والمجتمع؟

لما نعود بأدراجنا إلى أحداث بجاية، نجد من عوامل نجاح علي بن غانية غياب الحامية العسكرية كما سبق الإشارة إليها، كما كانت المدينة حينها تفتقر إلى أسوار دفاعية، إذ دخل الميارقة من باب اللوز ولم يكن فوق هذا الأخير سور دفاعي[39] في العهد الموحدي[40] ، فاستغل هذا الضعف للاستيلاء على القصبة ومنها إلى المدينة[41].

ولم يكن تورط الفقهاء وممن تولوا الخطط في إدارة الدولة والأعيان في مساندة الدخلاء من العوامل الأقل شأنا عن غياب القوة الدفاعية. وكان للعامة بدورها دورا في تمكين بنو غانية من المدينة، إذ انقسمت على بعضها في مقاومة العدو يرجع هذا الانقسام بحسب توزعها في أحياء المدينة كحومة اللؤلؤة، وحومة بئر مسفرة وحومة رابطة المتمني خارج المدينة[42] ، وبالتالي كان هذا الأمر الذي فسر مواقف أهل المدينة المتباينة بين مدافع ومستسلم، وعليه نخلص أن لهذه الأحياء السكنية مشاركة فعالة في الحياة السياسية[43].

بعد النصر المحقق ببجاية توجه علي بن غانية نحو الجزائر تمكن من الاستيلاء عليها دون عناء يذكر[44] وولى عليها يحي بن أبي طلحة[45]. ولم تكن عوامل النجاح في الاستيلاء على المدينة تختلف عن العوامل المساعدة ببجاية، إذ أن مدينة الجزائر هي الأخرى لا تحتوي تحصينات أيا كان نوعها. بدليل لما خرج إليها والي بجاية أبو الربيع فارا من أمام ابن غانية لم يفضلها للاستقرار لأنها غير محصنة[46] فخرج منها إلى

تلمسان، وهناك قام ب"تحصين تلمسان ورمّ أسوارها"[47] وما كان يهتم بهذا الأمر إلا خشية منه أن يكون للمدينة نفس مصير المدن السابقة. كما يبدو أن المدينة لم تكن بها حامية عسكرية موحدية باعتبارها تحت هذه السلطة من المنظور السياسي، إذ لم تشر المصادر إلى حدوث مواجهة بين الغزاة والقوات الموحدية بها. وعليه فمن الطبيعي أن تنقاد العامة بها بسهولة لابن غانية في ظل غياب أدنى شروط الدفاع كيف لا وقد غابت في الولاية الرئيسة لشرق المغرب الأوسط.

ولم يختلف مصير أهل مليانة[48] ومازونة عن سابقيها، إذ لم يقاوما ابن غانية فاستولى على المدينتين بسهولة، فقدم عليهما يدر بن عائشة،وفي رواية أخرى أن استسلام أهل مليانة وقبولهم لبني غانية كان نتيجة قوة هؤلاء وقهرهم[49] واكتفى عند هذا الحد ولم يتقدم نحو العرب، بل رجع بأدراجه إلى بجاية[50] وتشير إحدى الدراسات أنه لم يكن من السهل على بني غائية دخول مدينة مليانة، بل وجدوا مقاومة من أهلها، وما كانوا يفعلون ذلك إلا بعد تواتر أنباء عودة الخليفة من الاندلس[51] ويعتبر النجاح المحقق في أكثر من مدينة بالمغرب الأوسط لدليل واضح على هشاشة السلطة الموحدية بها من جهة، ومن جهة أخرى فإن رؤية سكان المدن للسلاطين المحليين أو الغزاة فهي متشابهة[52].

تبدأ المهمة الميورقية تعرف الصعوبات على خلاف ما تعودت عليه مع توجههم إلى قلعة بني حماد، إذ دخلوها عنوة بعد حصار دام ثلاثة أيام[53] وهو أمر طبيعي بالنظر إلى موقع المدينة وامتيازها بالتحصينات الطبيعية التي تجعلها صعبة المنال،[54] فضلا على أن المحن السياسية التي تعرضت لها فيما مضى، والمتمثلة في الهجوم الهلالي ثم خرابها وتدميرها على يد الموحدين جعل أهلها على أهبة الاستعداد لأي هجوم مماثل. وبعدها توجه إلى قسنطينة في جمع لا يحصى[55]، ولا شك في أن ممن شكل هذا الجمع هم هلاليو المغرب الأوسط وبعض القبائل الصنهاجية.

ويختلف المشهد كليا مع على بن غانية وهو يطرق أبواب قسنطينة؛ فكل الصعوبات تلقاها وهو هناك، إذ دام حصارها لها دون أن يتمكن من دخولها، لأن المدينة "حصينة في غاية المنعة والحصانة"[56] وتستمد قوتها في التحصن من خندقها الذي يدور بها من ثلاث جهات [57]. ولم يستسلم سكانها له على غرار استسلامهم للقوات الموحدية سابقا، وأظهروا من الصمود ما مكنهم من مقاومة الحصار، فلجأ علي بن غانية بقطع الماء على سكانها[58]، "فبلغ أهلها حال مؤذنة بالدمار"[59]، ونتيجة هذا الوضع المزري لجأ أهلها إلى الشيخ أبا الحسن علي بن مخلوف "فسأل الله المطر فنزل وكانت حملة عظيمة في الوادي خرقت سد الميورقي ولم يقدر على قطعه"[60] . ومع ذلك لم يرحل عنها إلاّ فرارا من القوات الموحدية.

ويستخلص مما سبق أن عامة المغرب الأوسط في ظل الأزمة الميورقية انقسمت إلى قسمين، يتضح ذلك من خلال موقفها اتجاه ابن غانية، صنف شكلته قبائل البدو والتي استمرت على ما يبدو في العيش على نمطها السابق، موطدة علاقتها بالسلطة المركزية أحيانا، وخارجة عليها أحيانا أخرى تبعا لقوة أو ضعف هذه الدولة، كما أنهم شكلوا السواد الأعظم من المجتمعات،[61] ويتجسد هذا بشكل واضح مع القبائل الهلالية التي كانت الحليف ودون تردد لابن غانية. وعلى الرغم من محاولة الخليفة عبد المؤمن بن علي ومن أعقبه في الحكم من امتصاص غضبهم وثورتهم، لكن طرقهم لم تكن كافية لاحتوائهم. أما انقيادهم للسلطة الموحدية وطول مدة خدمتهم لها كانت بشق الأنفس؛ ذلك لان الشعور القبلي ظل حيا لدى العرب حتى وهم داخل المدن، وعليه لم يتناسوا انتماءاتهم القبلية، لذا فمن الصعوبة البث في مسألة العلاقة بين الانتماءين القبلي والمذهبي[62]. ولهذا كان وجود بنو غانية فرصة لإظهار معارضتهم للحكم المركزي الصارم[63]. وبهم تمكنوا من الاستمرار في حروبهم ضد الموحدين وهم في عز قوتهم إلى غاية سنة 630هـ/ 1232م[64]، إذ بايعوا ابن غانية وهو ببجاية، وساندوه في حربه مع

واليها في موقعة يملول، كما انضم إليه عرب قسنطينة وانضاف إليه الأغزاز [65] ، كما شاركوه هجومه على تلمسان سنة 605هـ/1208م[66]. وفي موقفهم ذلك دلالة على استحالة استمرار يتهم في الولاء للسلطة الموحدية لأنه لا يخدم مصالحهم.

ولم يختلف موقف قبائل البدو الرحل من البربر عن الموقف الهلالي من الميارقة، إذ ساندتهم قبيلة بني مرين التي لم تقبل العيش تحت السلطان الموحدي حريصة على حريتها، فأذن لها بالإقامة على تخوم الصحراء، فكان مجالها الرعوي يمتد ما بين فقيق والوادي الأوسط لنهر الملوية[67]. وهذا يدل على أن الوجود الموحدي بالمغرب الأوسط لم يتجاوز سلطانه المنطقة الساحلية التلية [68].

وفي ذات السياق كان لقبائل زناتة المستوطنة جهات تلمسان دورا في هجوم بنو غانية على المدينة سنة 605هـ/1208م[69]. وكانت هذه المساعدة نتيجة لرفضها للسلطة الموحدية ولم تخضع إلا بالقوة بدليل أنه لما اعتل والي تلمسان كتب إلى الخليفة خشية من "ضياع ما لديه من الأشغال واضطراب قبائل زناتة واختلافهم وقطع السبل..."[70].

أما في شرق المغرب الأوسط فقد كانت مناطق الزاب والأوراس هي الأخرى تعيش النظام العشائري، وغاب فيها النظام المركزي، فعديدة هي مدن إقليم الزاب كانت ترضخ تحت الحكم الهلالي، ولهذا الأخير معارضة للسلطة الموحدية. أما إقليم منطقة الأوراس قد يعود غياب الحكم المركزي إلى الفترة الفاطمية وتلك الاستقلالية استمرت إلى غاية العهد الموحدي[71]، وتندرج هذه الاستقلالية في نطاق التحولات السياسية التي عرفها المغرب الإسلامي والذي تركز فيه النظام المركزي بدء بالحمادين إلى غاية الزناتيين على المدن الكبرى كبجاية والجزائر وبونة وقسنطينة. وكان لهذا التحول نتيجة اقتصادية هامة؛ تمثلت في ازدهار تلك المدن بتحول الطرق التجارية نحو التل أو بداخل الصحراء، انطلاقا من تافيلالت مرورا بتوات ووارجلان وسوف وهي من عوامل إقصاء المنطقة اقتصاديا وإهمالها من قبل المؤرخين [72].

وإن كان السبب المذكور آنفا مرتبط بالتحولات السياسية والاقتصادية التي عرفها المغرب الإسلامي، فإنه ثمة عامل أكثر أهمية يرجع إلى ذهنية السكان المنطقة في حد ذاتها، والمنحصرة في النظام العشائري، رافضة حكما أجنبيا ومركزي. وفي هذا الصدد يقول الإدريسي عن بغاي: "وقبض معاوينها وتصرف أحوالها لأشياخها"[73]. لكن السؤال المطروح من هم هؤلاء الأشياخ؟ هل هم من عرب الهلالية أم من السكان البربر؟ لأن المنطقة عرفت انتشارا واسعا للهلالين بها[74]. وبذلك دون شك قد شكلت حليفا آخرا لبني غانية. وعليه فليس من الصدفة أن نجد ميدان نفوذ الثائرين بالمناطق الرعوية بالحزام الرابط طرابلس الغرب وجنوب تونس إلى السهول العليا بالمغرب الأوسط، ومناطق الزاب. فبهذه المناطق وجد بنو غانية تسهيلات حربية ومساندة من قبل السكان[75] .أما المؤكد أنها لم تخضع لسلطة رسمية بالمغرب، تظهر ذلك الرواية التالية: "وفي هذه السنة (ثمانمائة هجرية)كانت وقيعة الأوراس بوصول أمير المؤمنين (أبو فارس أحمد) إلى مكان لم يصله ملك غيره وهو أقصى الجبل" [76]. وعليه فإن المنطقة حافظت على استقلالها رغم من أن الحفصيين مدوا نفوذهم من بجاية ودلس وبسكرة، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك في منطقة الاوراس[77]. وفي رواية أخرى أعتاد سكان المنطقة التستر على الطرق والمسالك المؤدية إلى مواطنهم الجبلية الحصينة بعد امتناعهم عن عقد صلات مع سكان المناطق المجاورة لهم خوفا من أعدائهم من الأعراب وتعسف الأمراء المجاورين لهم[78].

أما الصنف الثاني فيشمل عامة المدن التي عانت كثيرا من الوجود الميورقي، فالواقع التاريخي أبرز الأزمة والارتباك التي شهدته في حياتها السياسية، حتى وإن لم تقبل نظاما تبين أنه صارما وشديد المركزية، فإنها لم تبد استيائها منه ولم تجهر بعدائها له لكنها لم تفوت الفرصة في الالتحاق أو السكوت في أضعف الحالات عن تحركات بنو غانية بمناطق المغرب الأوسط– إذا ما استثنينا أهل قلعة بني حماد وقسنطينة وأهل

تلمسان المدينة–[79] مما يدل أن العامة لم تكن مرتبطة ارتباطا وثيقا بتلك السلطة، فكان ولاءها للأقوى ولا يعني هذا أن الحدود بين الطرفين كانت مستحيلة العبور، فالعامل السياسي والتحرك الاجتماعي موجود في كلا الاتجاهين، إذ سرعان ما تنكر العوام لحلفائهم من بني غانية، وذلك بمجرد ما جهز الخليفة المنصور جيشا بريا وآخر بحريا لاسترداد المدن التي أصبحت بقبضة الغزاة[80]. وألحقه بكتب سرا "لأهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والإحسان، ولما دنت من البلاد دسوا بالكتب جواسيس دخلوا بها ليلا إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن، فلما وقفوا عليها رأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب وأن العفو والرحمة مفتوحة الأبواب، وثبوا على من كان عندهم من الأعداء، وأرصدوا لفرارهم بالمضايق وقبضوا على أكثرهم في تلك المخانق" [81].

وتبين أن المنصور قد حصد من جراء عفوه وصفحه التفاف العامة حوله ومساندته في القبض على الميورقيين، وإن لم توضح المصادر دور عامة الجزائر في القبض على يحي بن طلحة صاحب الجزائر وعلى "حواشيه وأتباعه وغواشيه"[82]، فإن لأهل مليانة دور في القبض على يدر بن عائشة والي الميارقة عليها إذ عرض عليه النزول إلى قرية أم العلو على وجه التضييف وهناك قبض عليه وعلى أتباعه من حاشيته بعد محاربته ومعاركته[83]، ولم يتوقف دورها عند هذا الحد بل انضافت إلى الأسطول الموحدي الذي انتقل من الجزائر إلى بجاية[84] فزادته قوة على قوته، ولما وصلت قطعة واحدة من الأسطول إلى بجاية بقيادة أبو العباس الصقلي عمل على بث الكتب في أوساط أهل المدينة مبلغهم بحجم الأسطول اللاحق وبوصول القوات البرية إليها وعند وصول بقية الأسطول "ضجت العامة وفتحت الأبواب ودخلت العمائر"[85].

ويمكن الجزم أن النجاح الذي حققه الموحدون في استمالة عوام مدن المغرب الأوسط المستولى عليها[86]. من جديد لم يكن بسبب القوة العسكرية الموحدية وحسب،

بل يرجع كذلك إلى الحس الإعلامي الذي تميزت به السلطة الموحدية في الغرب الإسلامي دون غيرها[87]. فحرصت على أن تجعل من الإعلام والدعاية منزلة هامة[88]. في تخطيطها السياسي والعسكري وتنظيماتها الاجتماعية ومن ذلك نجدها في محاربتها لبني غانية تسبق إعلام العوام بحجم القوة العسكرية التي تمتلكها بقصد ترهيبهم وبالعفو والصفح عنهم قبل حدوث المواجهة بهدف الترغيب للانضمام إليها ويضاف إلى هذان العاملان، عاملا آخرا في غاية الأهمية والمتمثل في سياسة القتل التي اعتمدها علي بن غانية اتجاه معارضو بيعته ببجاية هذا إذا ما سلمنا برواية بن أبي زرع الفاسي [89]. وبالتالي لم تجد عامة فرقا بين سياسة الموحدين الدموية وشبيهتها الميورقية التي ظنوا فيها الخلاص. لهذا لما نزل الخليفة المنصور بجاية تلقاه أهلها مستقبليه خائفين من عقابه إلا أنه لقيهم« منشرح الصدر ظاهر البشر ...ما بسط به نفوسهم ورد إليهم نافر أنسهم وقد كانوا يظنون غير ذلك" [90].

وإن لجأ العوام إلى السلطة مستنجدون بها من عيث ابن غانية، أو متدللة طالبة الصفح والأمان منها ،فهو أمر طبيعي، لكن الذي ليس بأمر طبيعي هو انحدار الخواص إلى صفوف العوام[91]؛ إذ أصبحت العامة القوة الشعبية التي يلجأ إليها الخلفاء في استعادة سيطرتهم ومحاربة أعدائهم، إذ انضم أهل تلمسان إلى الجيش الموحدي لما خرج لمحاربة الميورقيين[92].

وتخلى جل مؤيدي بنو غانية من العامة عنهم بعد قدوم القوات الموحدية إلي المدينة؛ إذ لم يخرج مع يحي بن غانية إلا عددا قليلا [93]. كما كان لأعيان المدينة دورا في القبض على حلفاء بني غانية من ذلك استهواء القاضي أبو العباس بن الخطيب عبد الله الصنهاجي أخ غزي الصنهاجي، فستنزله بإغرائه إلى بجاية وهناك " صلب ببجاية بإزاء رأس أخيه"[94].

هذا وقد كان أخاه غزي الصنهاجي ممن أخذته الأنفة على سقوط الحكم الصنهاجي وإحلال محله الحكم المصمودي ببجاية. والواضح أنه كان يتحين الفرصة في قلب النظام الجديد فلم يفوت تأييد بنو غانية حيث أمده بجنده فتمكن بذلك من محاصرة أشير وقتل حافظها مستغلا عودة الأسطول إلى المغرب، لكنه انهزم أمام الجيش الموحدي الذي جاءه من بجاية لاسترداد المدينة بقيادة أبي الظفر بن مردنيش وأبي حفص عمر[95].

ما يمكن استخلاصه عن عوام المغرب الأوسط وبجاية بشكل خاص بحكم أنها شكلت محورا رئيسيا في الصراع بين الطرفين؛ أنها عاشت حالة من الفوضى والذعر وعدم الجرأة في اتخاذ موقفا صريحا وصحيحا، بل وجدت نفسها تحت السيف الميورقي أحيانا، وأحيانا أخرى تحت السيف الموحدي. لذا ظلت في تقلب اضطراري بين الولاءين بحسب ميزان القوة.

وإن استعيدت بجاية من قبل الموحدين بعدما رضخ أهلها تحت الحكم الميورقي لمدة سبعة أشهر[96]. وساعدهم في ذلك عامتها، فإنهم سيخذلون السلطة من جديد أثناء السيطرة الثانية لعلي بن غانية التي كانت أطول من الأولى والمقدرة بسنتين كاملتين على عهد الخليفة الناصر من سنة 599 هـ إلى سنة 601 هـ/1203-1204م97. ولطول هذه المدة دلالات خطيرة على الصعيد السياسي فهي دلالة لغياب كلي للسلطة الموحدية وشساعة الهوة بينها وبين رعيتها بالمدينة، وهذه ليست حالة بجاية وحسب بل وضع ساد العديد من مناطق افريقية.

الهوامش :

[1]- وبالاطلاع على ما أمكن من المصادر بهذا الخصوص، نجد أنفسنا أمام ثلاثة أنواع من الروايات التاريخية؛ فإحداها تحدد تاريخ نزولهم بميناء المدينة كان يوم الجمعة 06 شعبان580هـ/1184م. ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص296. أما الثانية فترجع دخولهم يوم 19 صفر581هـ/1185م. ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، تح محمد ابراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص176. ويوافقه التيجاني لما يحدد تاريخ وصول الجيش الموحدي للمدينة كان في سنة582 هـ/1187م. الرحلة التجانية، الدار العربية للكتاب، تونس، 2005، ص155. وتعتبر الرواية الثالثة لابن شداد هي الفاصلة بين الروايتين السابقتين فكانت أكثر تركيزا في سرد الحدث؛ ذلك أن صاحبها بربري صنهاجي عاصر الأحداث ذاتها فذكر أن التاريخ الذي جاءت به الرواية الأولى هو تاريخ دخولهم المدينة، أما تاريخ الرواية الثانية فكان تاريخ استرجاعها من أيديهم من قبل السلطة الموحدية. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح وتع مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،1966،ج10، ص435. وهو الوحيد على حد علمنا من انفرد بهذا الخبر وتتعزز صحتها برواية معاصر آخر للأحداث وهو ابن جبير الذي قام برحلته ما بين578-581هـ/1182-1185م، فجعل تاريخ دخولهم للمدينة كان في رمضان 580هـ/ ديسمبر1184م. رحلة ابن جبير، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2001، ص245.

[2]– عبد الواحد المراكشي، المعجب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005، ص192.

[3]–ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 269. ابن خلدون، العبر، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2003، ج2، ص2471.

[4] – ابن عذاري، المصدر السابق، ص181.

[5]– أحمد عزاوي، رسائل موحدية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، 1995، ج2، ص72.

[6]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص47.

[7]– النويري، المصدر السابق، ص415.

[8]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص182.

[9] – مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، دار النشر المغربية، ط1، 1987، ص78-79.

[10]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص182.

11- De- mas latrie, relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb Nations avec chrétiennes ou moyen âge , Paris, 1886, p94-95.

[12]– أحمد عزاوي، المرجع السابق الهامش رقم 113، ص73.

[13]– ابراهيم جدلة، المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي، مطبعة قطيف قفصة، تونس، 2010، ص182.

[14]– نفسه، ص182-183.

[15]– أحمد عزاوي، المرجع السابق، ج2، ص73.

[16]–عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2007، ص331.

[17]– ابن الزبير، صلة الصلة، مكتبة الخياط، بيروت، بلات، ص5.

[18]– يرجع سبب استيائه للأعمال الوحشية الذي قام بها الجيش الموحدي أثناء فتحه للبلة موطنه الأصلي سنة 549هـ وكانت هذه الفتنة سببا في هجرته إلى بجاية. رابح بونار، عبد الحق الإشبيلي البجائي "الأصالة" عدد خاص ببجاية عبر العصور، مطبعة البعث، قسنطينة، ع19، س 4، 1974، ص260-261.

[19]–عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص193.

[20]– الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من علماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1970، ص193.

[21]– نفسه، ص68.

[22]– نفسه، ص68.

[23]– محمد قبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص19-20.

[24] – الغبريني، المصدر السابق، ص68.

[25]-Dominique Valérian, Bougie port Maghrébin 1067-1510,éd, école Française de Rome,2006, p50-51.

[26]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص177.

[27]– محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع، جدور للنشر، الرباط، ط1، 2006، ص 70.

[28]– الغبريني، المصدر السابق، ص77.

[29]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص 175-176.

[30]– نفسه، ص176.

[31]– ابراهيم جدلة، المرجع السابق، ص188.

[32] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2471. ابن عذاري، المصدر السابق، ص177

[33] – ابن عذاري، المصدر السابق، ص 176.

[34]– أرنست كلنير، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية، ترجمة عبد الأحد السبتي، "مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية"، الرباط، ع11، 1985، ص172.

[35]– محفوظ سماتي، دور النخبة في المجتمع الإسلامي في منظور ابن رشد، "مجلة دراسات فلسفية"، س3، ع5، 1998، ص102.

[36]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص177.

[37]- قد يكون هدف تحالف أتراك الغز بقيادة قراقوش مع بني غانية ضد الموحدون إيجاد لحمة بين أجزاء العالم الإسلامي لمواجهة المد الصليبي. على أحمد، الموحدون وبنو غانية، "مجلة الدراسات التاريخية"، جامعة دمشق، ع ص31-32، 1989، ص191.

[38]–ابن عذاري، المصدر السابق، ص 175.

[39]– الغبريني، المصدر السابق، ص78.

[40]- يؤكد مصدرا لا حقا على وجود أسوارا لائقة للدفاع، وأن المدينة محمية على أكمل وجه. العبدري، رحلة العبدري، تح علي إبراهيم الكردي، دار للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999، ص84. وفي رواية قام قاضي بجاية ابن الغماز بتشييد الأسوار بها بهدف الدفاع عنها سنة 659هـ/1261م. الغبريني، المصدر السابق، ص129.

[41]– روبار برنشفك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ق13-15هـ، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988، ج1، ص413.

[42]– الغبريني، المصدر السابق، ص165-176-182.

[43]– إبراهيم جدلة، المرجع السابق، ص287-289.

[44]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص177.

[45]– نفسه، ن ص. ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2471.

[46]– ابن عذاري، المصدر السابق، صص177.

[47]–ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2471.

[48]– يرى ألفرد بل أن ابن غانية لم يلق سهولة لدخوله المدينة عكس ما ورد في المصادر التاريخية ، أهلها أنباء عودة الخليفة المنصور من الأندلس ورجع ذلك إلى تواتر بين Alfred bel, Les Banou ghanya,Paris,1903,p46.

[49]– رسائل موحدية، مجموعة بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2010، ر رقم 29، ص 168.

[50]- Alfred bel, Op, Cit, p46 .

[51]- Op, Cit, p 46-[1].

[52]– إبراهيم جدلة، المرجع السابق، ص 295-296.

[53]– ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص2471.

[54]– الإدريسي، نزهة المشتاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، ج1، ص255.

[55]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص177.

[56]– الحميري، روض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت،ط2، 1984، ص480.

[57]– الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص265.

[58]– ابن قنفد القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح محمد الشاذلي، النيفر عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص103.

[59]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص179.

[60] -ابن قنفد، المصدر السابق، ص103.

[61]– عبد الجليل حليم، البدو والسلطة السياسية" الثقافة"، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، س14، ع79، ص188

[62]– نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف ق5هـ/11م، منشورات تبر الزمان، تونس، 2004، ص87.

[63]–ابراهيم جدلة، المرجع السابق، ص26.

[64]– روجي لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب في ق 12-13، تعريب أمين الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط2، 1989، ص84-85.

[65]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص177-187.

[66]– نفسه، ص252.

[67]– روجي لوتورنو، المرجع السابق، ص 58-104.

[68]– نفسه، ص 104.

[69]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص252.

[70]– نفسه، ن ص.

[71]– ناصر الدين سعيدوني، الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة، " الأصالة"، مطبعة البعث ، قسنطينة، ع61، 1978، ص118.

[72]– نفسه، ص118.

[73]– نزهة المشتاق، ج1، ص277.

[74]– نفسه، نص.

[75]– روجي لوتورنو، المرجع السابق، ص85.

[76]– ابن قنفد، المصدر السابق، ص195.

[77]– ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص131.

[78]– حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2، ص102-103.

[79]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص177-252.

[80]– نفسه، ص177.

[81]– نفسه، ص178.

[82]– نفسه، ص178.

[83]– نفسه، ص178.

[84]– نفسه، ص178.

[85]– نفسه، ص178.

[86]– اختلفت الروايات حول المدن التي دخلها الميارقة، فهي بجاية والجزائر والمدية. يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك
بني عبد الواد، تح تع عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر، 1980، ج1، ص90. وهي الجزائر ومليانة وأشير والقلعة وبجاية. رسائل موحدية، مجموعة بروفنسال، ص.166

[87]– نتج عن الحس الإعلامي للسلطة الموحدية مجموعة كبيرة من الرسائل الرسمية ، اختلفت مضامينه ووجهاتها، يراجع في في ذلك مجموعة بروفنسال، ومجموعة جديدة للباحث أحمد عزاوي.

[88]– محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، الدولة– المدينة– الاقتصاد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص178.

[89]– روض القرطاس، ص269.

[90]– عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص193.

[91]– إبراهيم جدلة، المرجع السابق، ص288.

[92]– ابن عذاري، المصدر السابق، ص178.

[93]– نفسه، ص178.

[94]– نفسه، ص181.

[95]– نفسه، ص181.

[96]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص269 .

[97]– صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية الآداب، جامعة تونس، 2006، ص64.